

تَجْدِيدُ

الْمِنْوَالِ اللِّسَانِي

بُحُوثٌ مُحْكَمَةٌ مُهْدَاةٌ إِلَى
الْأَسْتَاذِ عَزِّ الدِّينِ الْمَجْدُوبِ

تحرير

د. فدوى العذارى

ندوة عقدت يومي 11-12 مارس 2020

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سوسة / تونس



عن الأمين العام

منذ إنشائها عام 1945، عملت جامعة الدول العربية على تعزيز التعاون والتضامن بين شعوبها، وتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وحماية حقوقها، وتعزيز الديمقراطية والحوكمة الرشيدة.

في المستقبل

تتواصل الجهود العربية لتقوية أركانها، وتعزيز قدرتها على التصديق على التحديات العالمية، وتحقيق التنمية المستدامة، وحماية حقوقها، وتعزيز الديمقراطية والحوكمة الرشيدة.

تتواصل الجهود العربية لتقوية أركانها، وتعزيز قدرتها على التصديق على التحديات العالمية، وتحقيق التنمية المستدامة، وحماية حقوقها، وتعزيز الديمقراطية والحوكمة الرشيدة.

تتواصل الجهود العربية لتقوية أركانها، وتعزيز قدرتها على التصديق على التحديات العالمية، وتحقيق التنمية المستدامة، وحماية حقوقها، وتعزيز الديمقراطية والحوكمة الرشيدة.

تتواصل الجهود العربية لتقوية أركانها، وتعزيز قدرتها على التصديق على التحديات العالمية، وتحقيق التنمية المستدامة، وحماية حقوقها، وتعزيز الديمقراطية والحوكمة الرشيدة.

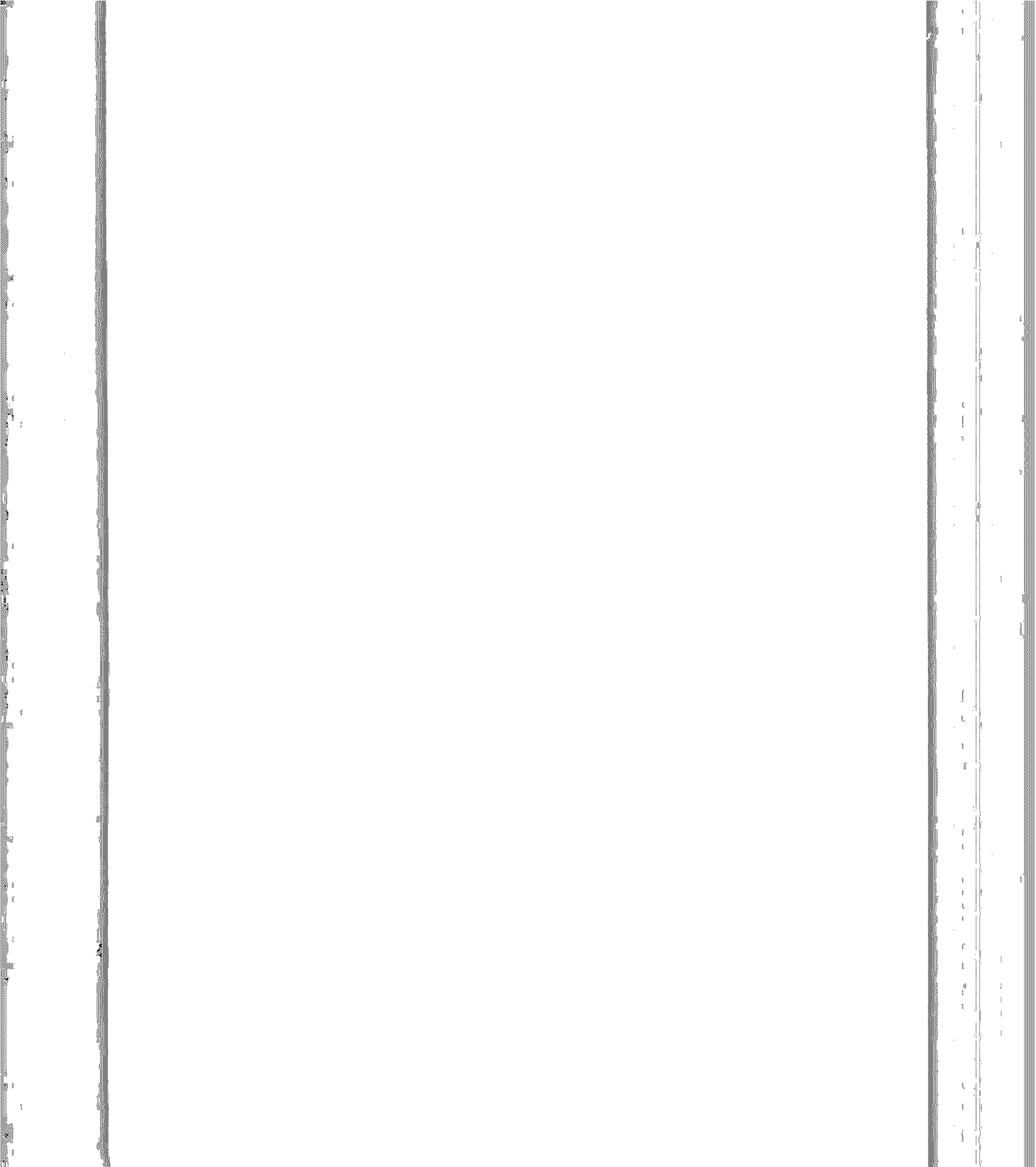
تتواصل الجهود العربية لتقوية أركانها، وتعزيز قدرتها على التصديق على التحديات العالمية، وتحقيق التنمية المستدامة، وحماية حقوقها، وتعزيز الديمقراطية والحوكمة الرشيدة.

في المستقبل

تتواصل الجهود العربية لتقوية أركانها، وتعزيز قدرتها على التصديق على التحديات العالمية، وتحقيق التنمية المستدامة، وحماية حقوقها، وتعزيز الديمقراطية والحوكمة الرشيدة.

تَجْدِيدُ
الْمِنْوَالِ اللِّسَانِيِّ

بِحَوْثِ سَحْكَنَةَ مَهْدَاةِ إِلَى
الْأَسْتَاذِ عَزَّ الدِّينِ الْمَجْدُوبِ



تَجْدِيدُ الْمِنْوَالِ اللِّسَانِيِّ

بُحُوثٌ مُحَكَّمَةٌ مُهَدَاةٌ إِلَى
الْأَسْتَاذِ عَزِّ الدِّينِ الْمَجْدُوبِ

ندوة عقدت يومي 11-12 مارس 2020
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سوسة/ تونس

تحرير

د. فدوى العذاري



تجديد المنوال اللساني: بحوث محكمة

تحرير: فدوى العذاري

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الأردنية: 2020/10/4371

وإدمك: 978 9957 74 918 7 ISBN

الطبعة الأولى: 2021م / 1442هـ

جميع الحقوق محفوظة © 2021



دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع
Dar Kunouz Al Marefa Publishers

عمّان - الأردن Amman - Jordan

عمّان: وسط البلد - ش. الملك حسين

مقابل بنك الإسكان

هاتف: 00962 6 4655877 Tel:

خلوي: 00962 79 5525 494 Mobile:

E-mail : dar_konoz@yahoo.com

www.darkonoz.com

جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو استنسخه أو نقله كلياً أو جزئياً - في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطرق إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها - دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

Copyright © All Rights Reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the Publisher.

الأنماطية وبناء اللسانيات عند هيلمسلاف

د. ونّام الحيزم

أستاذة مساعدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سوسة - تونس

wiemhizem@yahoo.com.fr

مقدمة

لا يغيب عن المهتمّ بالدراسات اللغوية أنّ الأنماطية typologie أضحت اليوم الموضوع الرّائج في الدراسات اللسانية. ويعود هذا الرّواج إلى استفادتها ممّا تحقّق لها من توثيق للألسن الطّبيعية المختلفة وقد تجاوزت ستّة آلاف لسان. كما لا يغيب عنه تنوّع المقاربات الأنماطية؛ تنوّع يمكن تفسيره بطبيعة الأبنية اللغوية وتعدّد الأنظمة اللسانية من جهة أولى وباختلاف المنطلقات النظرية والمنهجية والمناهج الوصفية من جهة ثانية.

اقتربت الأنماطية المعاصرة بجوزيف غرينبارغ Joseph Greenberg (1915-2001) منظم الندوة التي حملت عنوان «الكليات اللغوية»⁽¹⁾ سنة 1961. على أنّ ما ينبغي أن يذكر في هذا الصّدد أنّ الأنماطية اللسانية حسب الفرنسي لازار Lazard ترجع إلى لسانيين روّاد ثلاثة هم: الأمريكيّ سابير Sapir (1884-1939) والدانماركيّ هيلمسلاف Hjelmslev (1899-1965) والفرنسيّ بنفنيست Benveniste (1902-1979). وقد اعتبر أنّ الاثني الأخيرين قد تسيهما الأنماطيّون typologues الأنغلو سكسون ومن تبعهم أي تقريبا الكلّ. مشيرا إلى أنّ اللسانيات الأمريكيّة ترسم الطّريق وتوجّهه وهي فاقدة للذاكرة (Lazard.2008).

(1) انظر:

Universals of language. Edited by Joseph Greenberg. THE M.I.T PRESS. 2nd ed. 1966

16). والواقع أن هذا «النسيان» لا يقتصر على الأنماطية⁽¹⁾ فحسب بل يبدو أنه يشمل البدايات والأعمال الأولى، فها هي طمبا Tamba قد أشارت هي أيضا إلى الظاهرة نفسها عندما تطرقت إلى نزعة «النسيان» التي طالت عديد المؤلفات الموضوعية في علم الدلالة والمنشورة منذ حوالي سنة 1955 والمقصود بذلك هو نسيان هذه المؤلفات للأعمال الدلالية الأولى كأن الذي اكتشف في هذا المجال قبل ظهور اللسانيات الأتية يعدّ مما فات أوانه (Tamba, 1991, 10).

لم نجعل هدفنا في هذا المقام تقديم لمحة تاريخية لظهور الأنماطية ولا عرض مختلف المقاربات التي أتبعتها وإنما أردنا أن نبيّن صلة الأنماطية باللسانيات من حيث مساهمتها في بناء هذا العلم حسب تصوّر هيلمسلاف. ضمن المشهور المتداول أن هذا اللساني الدانماركي عني عناية شديدة بالأسس النظرية للسانيات، فسمى في إطار حلقة كوبنهاغ إلى وضع نظرية أطلق عليها الغلوسيماتيك (Hjelmslev, 1971) la glossématique. وكان همّه أن تسيّر اللسانيات على نهج العلوم الصحيحة من حيث صرامة المنهج وشروط صياغة النظرية العلمية وبناء المناويل modèles (المجدوب، 1998)، ولكن ما يبدو أقلّ تداولاً وربما يكون غائبا عن الأذهان أنه عدّ في الوقت نفسه الأنماطية الشاملة typologie exhaustive المهمة الكبرى التي على أساسها تبلغ اللسانيات مرتبة العلم. كان كلّ ذلك إذن في توافق مع بنائه للنظرية اللغوية ومشروعه اللساني. لذا سيقوم بحثنا على بيان المقصود عنده بالأنماطية من خلال تنزيلها في إطارها اللساني الموجود آنذاك وصلتها بنظرية اللغة.

1. هيلمسلاف مؤسس الغلوسيماتيك

تتفق أغلب المصادر على اعتبار هيلمسلاف من أهمّ المستفيدين من سوسير

(1) نذكر على سبيل المثال أن كلود حجاج Claude Hagege في كتابه «بنية الألسن» لم يُشير إلى هيلمسلاف رغم حديثه عن أعلام الأنماطية في القرن العشرين مثل سايير وبنفنيست.

والمواصلين لاتجاهه⁽¹⁾. بل هو حسب غريماس Greimas المواصل الحق والوحيد للسانيّ السوسيريّ والذي تمكّن من أن يجسّم حدوساته وأن يعطيها شكلها النهائيّ (In.Hjelmslev.1966, 12). اقترن اسمه بالفلوسيماتيك وهي نظريّة وضعت شكلنة formalisation دقيقة للأبنية اللغويّة وبتصوّره للتّحليل اللسانيّ من حيث هو نظام استدلاليّ محض. ولذا يصحّ تصنيفه ضمن التّسق التّنظيريّ والمقصود بذلك أن «النّظريّة والفرضيات والمصادرات والمسلمات تكوّن منطلقا سليما به تدرك الحقيقة العلميّة (...)» ويضمن انتساب اللسانيّات إلى مجال العلوم. (بن حمّودة. 2004. 41).

درس هيلمسلاف اللسان طبقا لتصوّر سوسير أي في ذاته ولذاته باعتبار أنّ له بنية من نوع خاصّ *sui generis* (Hjelmslev.1971, 12). وحدة منفصلة على نفسها. لذا ينبغي دراسته من حيث علاقات عناصره بعضها ببعض وهو ما أطلق عليه مبدأ المحايثة *principe d'immanence*. ولسنا نقول شيئا جديدا إذا قلنا إنّ أعاد قراءة المفاهيم السوسيريّة في تصوّره الجديد. فاستبدل اللسان *langue* والكلام *parole* بالهيكل *schéma* والاستعمال *usage*. وفرّق بين التّعبير *expression* (الدّال *signifiant*) والمضمون *contenu* (المدلّول *signifié*) معتبرا أنّ لكلّ منهما شكلا *forme* ومادّة *substance*. وقدّم مفهومي الوظيفة *fonction* والوظيف *fonctif* ... جاء هذا في كتابه الشّهير مقدّمة لنظريّة اللّغة *Prolégomènes à une théorie du langage* (1943) وقد ألفه تقريبا في نفس الوقت الذي ألف فيه كتابا آخر عنوانه اللّغة *Le langage* نُشر في فترة متأخرة (1963). فيه عرض هيلمسلاف أهمّ مكتسبات لسانيّات القرن التاسع عشر القائمة على مفهوم التّطوّر *évolution* والعائلة اللّسانيّة *famille linguistique*. وهذا ما يستدعي الملاحظات التّالية:

(1) وإن كان هيلمسلاف قد شدّد على أنّ نظريّة الفلوسيماتيك ينبغي أن لا تؤخذ مأخذ النّظريّة السوسيريّة معتبرا أنّ نظريّته قد أخذت في التّشكّل سنوات قبل أن يطّلع على نظريّة سوسير (انظر كتابه: *Essais linguistiques*.1971). على أنّ قارئ كتاب اللّغة يلاحظ أنّه قام على أساس ثنائيّة الآنيّة والزّمنيّة وخصّص فيه عنصرا للنّظام عند سوسير.

الأولى: إن تخصيص كتاب لغة يكشف عن المفاح اللساني السائد آنذاك. فقد ذهب كالفيه Calvet إلى أن نشر دروس سوسير سنة 1916 فتح عهد اللسانيات العامة linguistique générale ودراسة اللغة langage مستدلاً على هذا بعناوين مؤلفات لسانية ظهرت ابتداءً من السنوات العشرين تحمل كلها أحد هذين المصطلحين عنواناً لها ذكر ضمنها كتاب مقدمة لنظرية اللغة (In. Saussure, 2005, 508). ولم يحصر هيلمسلاف اهتمامه باللغة في وضع مقدمة نظرية لها فقط بل يبيّن أن الأنماطية هي الأقرب إلى ما يمكن تسميته مشكل طبيعة اللغة.

والملاحظة الثانية: عدم تطرّق هيلمسلاف في كتابه الأول إلى الثنائية السوسيرية آنية synchronie / زمانية diachronie لا يعني أنه أهملها بل تناولها في كتابه الثاني واعتمد عليها لتوضيح مفهوم القرابة اللسانية الوراثة والأنماطية.

والثالثة: إن قبول هيلمسلاف بالنتائج التي وصلت إليها اللسانيات الكلاسيكية دليل على إيمانه بهذا التراكم والاسترسال في العلم. لذا وقف على منهجها وعرض أهم نتائجها في ما يخص القرابة الوراثة بين الألسن ولكن ليتجاوزها فيما بعد ويقدم تصوّره لحل الإشكال الذي وقعت فيه من خلال تقديم وجهة نظر أخرى مغايرة لها كما سنرى في موضعه.

2. أزمة اللسانيات: الوعي بعلم جديد

استهل سوسير دروسه بمقدمة طويلة تتكوّن من سبعة أبواب تناول فيها أسس هذا العلم الجديد أي اللسانيات العامة. فتطرّق إلى موضوعها objet ومهامّها tâches الثلاث (سوسير، 1985، 24). لقد كان سوسير واعياً بأنّه يضع أسس علم جديد مستقلّ autonome مرّ قبل ذلك بالأطوار التالية: النحو والفيلولوجيا واللسانيات المقارنية والتاريخية. تواصل هذا الوعي مع هيلمسلاف. فقد استهلّ هو أيضاً كتاب اللغة بملاحظات تمهيدية (صص. 23-27) تخصّص علم اللغة / science du langage اللسانيات linguistique ذكر فيها أنّ هذا العلم شهد في عصره أزمة وهي كما يقول أزمة الأسس crise des fondements، وينبغي في

رأيه أن لا نأسف لهذا الأمر بل على العكس لأن فيه دليلاً على أن هذا العلم لا يراوح مكانه وإنما يتجدد بدون انقطاع. ذلك أنه في الأزمنة أو ما سماه الفترات النقدية *périodes critiques* يتسع الأفق ويتعمق فهم الأشياء الأكثر أهمية. فلم تصل اللسانيات إلى الانتظام علماً مستقلاً إلا عبر الأزمنة. لقد مرّت اللسانيات شأنها في ذلك شأن كل العلوم بفترات كلاسيكية وفترات نقدية. على هذا الأساس ميّز هيلمسلاف بين ما أطلق عليه اللسانيات الجديدة *la nouvelle linguistique* وبين اللسانيات الكلاسيكية ⁽¹⁾ *classique* ويقصد بها كل لسانيات سابقة لها. اهتم اللسانيون في اللسانيات الجديدة بالخصائص البنيوية وبجوهر اللغة *essence du langage* نفسه. وهذا يعني عنده الاهتمام بوجهة نظر *point de vue* تبدو الأكثر أهمية وطبيعية ويقصد بها وجهة النظر اللسانية المخالفة لوجهات النظر التي من خلالها درست اللغة أو يمكن أن تدرس: المنطق والتاريخ والفيزياء وعلم النفس وعلم الاجتماع. هكذا يمكن في نظره أن نقابل بين اللسانيات الجديدة وبين اللسانيات السابقة وهي عموماً لسانيات كلاسيكية من حيث التفكير في الأسس. لقد تعددت وجهات النظر المذكورة وتنوّعت ولكنها لم تصل في تقديره إلى دراسة اللغة من حيث هي علم مستقل. بيد أن هذا لا يعني عنده رفض النتائج السابقة التي توصل إليها الدارسون فقد رأى أنه في المجال العلمي يمكن أن نتحدث عن نتائج نهائية ولكن قلماً يمكن الحديث عن وجهات نظر نهائية. ولا يغيب عنك هنا التقاؤه مع سوسير الذي ذهب إلى أن «وجهة النظر هي التي تخلق الموضوع».

إن الذي شغل هذا العلم منذ كتابه مقدمة لنظرية اللغة هو بناء علم مستقل «لبناء لسانيات ينبغي أن نعمل بوجه آخر. فلا يمكن أن تكون اللسانيات مجرد علم مساعد ولا علماً مشتقاً. ينبغي أن تسعى إلى إدراك اللغة لا باعتبارها تجمّعاً لوقائع غير لغوية (...) وإنما باعتبارها كلاً مكتفياً بذاته، بنية من نوع

(1) تحدث هيلمسلاف في مقدمة لنظرية اللغة عن اللسانيات التقليدية *linguistique traditionnelle* وموضوعها الأساسي تاريخ الألسن والمقارنة الوراثة بينها (Hjelmslev, 1971, 11-12).

خاصّ»⁽¹⁾. وهو في كتاب اللّغة يتحدّث عن لسانيّات محضة *linguistique* *spécifiquement linguistique* «إنّما بهذه الطّريقة فقط أي إتمام اللّسانيّات المنطقية، التاريخية، الفيزيولوجية، الفيزيائية، النفسية، الاجتماعية بلسانيّات محضة. نكّون قد أسّسنا علم لغة باعتباره علما مستقلاّ تمام الاستقلال. إلى هذا المجهود تؤدّي الأزمة الحالية» (Hjelmslev.1966, 25). أمّا موضوع اللّسانيّ فهو ليس فقط اللّسان معزولا وإنّما قسم الألسنة الكامل وقد ارتبطت عناصره بعضها ببعض، يفسّر بعضها بعضا ويوضّح أحدها الآخر. وذهب هيلمسلاف إلى أبعد من ذلك حين جمع بين نظرية لسان خاصّ وأنماطية السن يمثّل نمط لها درس منعزلا حالة خاصّة. ففي رأيه لا يمكن أن ترسم حدّا بينهما لأنّه ككلّ وظيف لا وجود له إلاّ بموجب الوظيفة التي تربطه بالآخرين (Hjelmslev.1971, 159).

واضح أنّه سعى إلى دراسة اللّغة من زاوية لسانية محضة في تناسق مع تصوّره البنيويّ الذي رأى في اللّسان بنية خاصّة ينبغي أن تدرس من حيث علاقة عناصرها بعضها ببعض. وطبّق هذا في مستوى علاقة الألسن المشتركة في النمط.

3. لا تبغ اللّسانيّات مرتبة العلم إلاّ بالأنماطية

ذكرنا أعلاه تأكيد هيلمسلاف أنّ اللّسانيّات ينبغي أن تصبح بدورها علما وأن تكون مستقلة عن بقية العلوم. ولن يتسنى لها ذلك كما يقول إلاّ اعتمادا على الأنماطية «في الواقع إنّ أنماطية شاملة هي المهمة الكبرى والأكثر أهميّة التي تجدها اللّسانيّات»⁽²⁾. ويضيف موضّحا «وإنّما بالأنماطية فحسب ترتفع

(1) "Pour construire une linguistique, on doit procéder autrement. Celle-ci ne saurait être ni une simple science auxiliaire, ni une science dérivée. Elle doit chercher à saisir le langage non comme conglomérat de faits non linguistiques(...), mais comme un tout qui se suffit à lui-même, une structure *sui generis*." (Hjelmslev.1971, 12).

(2) "En réalité, une typologie linguistique exhaustive est la tâche la plus grande et la plus importante qui's offre à la linguistique." (Hjelmslev.1966, 128).

اللُّسَانِيَّاتِ إِلَى وَجْهَاتِ نَظَرٍ عَامَّةٍ تَمَامًا وَتَصَبُّحِ عِلْمًا»⁽¹⁾. تَخْتَزِلُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ
الْأَخِيرَةَ فِكْرَ هَيْلْمَسْلَافٍ: إِنَّ اللُّسَانِيَّاتِ عِنْدَهُ لَمْ تَصِلْ بَعْدَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْعِلْمِ رِغْمَ
مَا قَطَعْتَهُ مِنْ أَشْوَاطٍ. وَهِيَ إِلَى حَدِّ تِلْكَ الْفِتْرَةِ لَمْ تَحُلَّ بَلْ لَمْ تَطْرَحْ الْمَشَاكِلَ
الْمُرْكَزِيَّةَ. فِي الْمَقَابِلِ تَمَثَّلُ الْأَنْمَاطِيَّةُ وَسِيلَةً هَدَفَهَا الْبَحْثُ عَنِ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ
الْمَشْتَرِكَةِ أَيِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ نَسْمِيَهُ الثَّوَابِتِ وَالْكَلِّيَّاتِ مِنْ أَجْلِ ارْتِقَاءِ اللُّسَانِيَّاتِ إِلَى
مَرْتَبَةِ الْعِلْمِ. إِلَّا أَنَّهُ سَرَعَانَ مَا يَصْرِّحُ أَنَّ هَذِهِ الْمَهْمَةَ «أَبْعَدُ مَا تَكُونُ عَنِ التَّحْقِيقِ».
وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ هَذَا لِيُثْبِتَهُ عَنِ قَصْدِهِ «لَكِنْ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْعَالَمِ لَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ
أَجْمَلُ مِنْ أَنْ يَرَى أَمَامَهُ عِلْمًا يَتَكَوَّنُ»⁽²⁾.

كُلُّ هَذَا يَنْتَهِي بِنَا إِلَى مَشْرُوعِ بِنَاءِ عِلْمِ اللُّسَانِيَّاتِ طَمَحَ هَذَا اللُّسَانِيُّ إِلَى
تَحْقِيقِهِ مِنْ خِلَالِ اِهْتِمَامِهِ بِالثَّوَابِتِ وَالْكَلِّيَّاتِ كَمَا سَنَرَى.

4. الْقَرَابَةُ اللُّسَانِيَّةُ، وَرَاشِيَّةٌ وَأَنْمَاطِيَّةٌ

كَانَ شَغْلُ هَيْلْمَسْلَافِ الشَّاعِلِ هُوَ الْوَصْفُ الْعِلْمِيُّ. فَالْوَصْفُ عِنْدَهُ هُوَ أَسَاسُ
مَعْرِفَةِ أَيِّ مَوْضُوعٍ objet ومنه اللُّسَانُ. وَالْمَقْصُودُ بِهِ بَيَانُ الصِّلَاتِ rapports الَّتِي
يَنْدَرِجُ ضَمْنَهَا هَذَا الْمَوْضُوعُ أَوْ تَنْدَرِجُ ضَمْنَهُ. أُطْلِقُ تَسْمِيَةَ وَظَائِفِ fonctions عَلَى
هَذِهِ الصِّلَاتِ وَالْارْتِبَاطَاتِ dépendances الَّتِي سَجَّلَهَا الْوَصْفُ الْعِلْمِيُّ
(Hjelmslev, 1966, 29). وَيَكُونُ وَصْفُ الْمَوْضُوعِ بِإِحْدَى طَرِيقَتَيْنِ: إِمَّا بِتَحْلِيلِهِ
analyse أَيِّ بِتَقْسِيمِ الْمَوْضُوعِ إِلَى أَجْزَاءٍ لَهَا وَظِيفَةٌ مُتَبَادِلَةٌ réciproque. فِي هَذِهِ
الْحَالَةِ يَعُدُّ الْمَوْضُوعُ كِلَا totalité وَظِيفِيًّا. وَإِمَّا بِتَأْلِيفِهِ synthèse أَيِّ بِإِدْرَاجِ هَذَا
الْمَوْضُوعِ ضَمْنَ كُلِّ وَأَجْزَاءِ هَذَا الْكُلِّ وَظِيفَةٌ مُتَبَادِلَةٌ (م. ن.). وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَعُدُّ
الْمَوْضُوعُ جِزَاءً مِنْ كُلِّ وَظِيفِيًّا أَكْبَرَ. وَعَلَيْهِ يَمَثَلُ النُّحُو grammaire التَّحْلِيلُ لِأَنَّهُ

(1) "C'est seulement par la typologie que la linguistique s'élève à des points de vue tout
à fait généraux et devient une science" (Hjelmslev, ibid., 129).

(2) "Mais pour le savant rien n'est si beau que de voir devant lui une science à faire."
(Hjelmslev, ibid., 129).

يفهم *conçut* لسانا خاصا أو بالتّحديد حالة لسان *état de langue* ⁽¹⁾ خاصّة على أنّه كلّ معزول ويصفه بتحليله وبيان الوظائف الموجودة بين أجزائه. وبالإمكان من جهة ثانية إدراج هذا اللسان ضمن كلّ أكبر أي باعتباره جزءا من مجموعة من الألسن *groupe de langues* توصف هي بدورها بتحليلها وبيان الوظائف الموجودة بين أجزائها. أطلق هيلمسلاف تسمية القرابة اللسانية *parenté linguistique* على الصّلات القائمة بين الألسن المنتمية إلى نفس المجموعة اللسانية معرّفا إياها بكونها «مجموع الصّلات القائمة بين الألسن المنتمية إلى المجموعة اللسانية نفسها أو بعبارة أخرى الوظائف التي تكوّن مجموعة لسانية ⁽²⁾ مميّزا بين نوعين من القرابة اللسانية: الوراثة *génétique* والأنماطية *typologique*. وقد تتبّعنا خصائص كلّ واحدة منهما في كتابه اللّغة وجمعناها في ما يلي:

الأنماطية اللسانية	الوراثة اللسانية
- توجد بين ألسن تنتمي إلى النمط نفسه ولا تدلّ على أصل مشترك ولكنها تقوم على تطابق <i>concordance</i> بنيويّ تكيفه إمكانيات عامة للغة (ص. 30).	- توجد بين ألسن تنتمي إلى العائلة اللسانية نفسها وتدلّ على أصلها المشترك (ص. 30).
	- تقوم على وظائف العناصر (ص. 35).

(1) استعمال هيلمسلاف لـ «حالة لسان» يعطينا على سوسير الذي تحدّث من قبله عن حالة لسان بالنسبة إلى الدّراسة الآتية.

علّق غريماس على استعمال هيلمسلاف لـ «حالة لسان» موضحا أنّ الألسنة الطبيعيّة هي حقائق اجتماعيّة... ولا يمكن نتيجة لذلك أن نتحدّث عن ألسنة صرفة بل عن حالات لسانية. وإنّ الألسنة باعتبارها حالات ينبغي أن تدرس في الآن نفسه من حيث هي أنظمة ومن حيث هي قواعد تكيف اشتغال هذه الأنظمة (In. Hjelmslev, 1966, 17).

(2) "On nomme *parenté linguistique* les rapports entre les langues appartenant à un même groupe linguistique- ou, en d'autres termes, les fonctions établissant un groupe linguistique." (Hjelmslev, 1966, 30).

- يمكن تعريفها إجرائيًا بكونها وظيفة جامعة للألسن تتمثل في أن كل عنصر تعبير في لسان ما مرتبط بوظيفة عنصر تعبير في لسان آخر (صص. 52-53).	- يمكن تعريفها إجرائيًا بكونها وظيفة بين ألسن تتمثل في أن مقولات catégories كل لسان منها ترتبط عبر وظيفة بمقولات كل لسان آخر (ص. 128).
- محدودة إقليميًا régionalement (ص. 129).	
- تكشف عنها وظائف العناصر لهذه الألسن (ص. 128).	- تعرف عبر وظيفة المقولات (ص. 128).
- تحدّد لسانًا أصلاً originelle (ص. 180).	- تحدّد نمطا موجودا وراء الألسنة الخاصة المدروسة (ص. 180).
- تعريفها شكليًا بكونها مؤسّسة على استمرار continuation أي على تعالق اقتضاء أحادي الجانب بين ألسن corrélation de présupposition unilatérale (ص. 181).	- تعريفها شكليًا بكونها مؤسّسة على إنجاز نمط réalisation d'un type أي على علاقة اقتضاء أحادية الجانب بين ألسن relation de présupposition unilatérale (ص. 181).

بدءا لا بدّ من الإشارة إلى أن اهتمام اللسانيّات الكلاسيكيّة بالقرابة الأنماطيّة هو أقلّ بكثير من اهتمامها بالقرابة الوراثةيّة (Hjelmslev, 1966, 127). وهو أمر يمكن أن نفسّره بعناية الدراسات اللسانيّات في تلك الفترة بتطور الألسن والمقارنة بينها ووضعها في إطار العائلة اللسانيّة⁽¹⁾. لم يتفّه هيلمسلاف أن القرابة الوراثةيّة هي المجال الأكثر دراسة للألسن وتوضيحا لها آنذاك. في المقابل لم يمنعه هذا من تجاوزها فقد اعتبر أنّها أدّت إلى الإشكاليّة النقديّة

(1) ذكر هيلمسلاف أنّه أطلق تسمية العائلة famille على مجموعة من الألسن واسعة جدا. فتحدّث مثلا عن العائلة الهندو أوروبية. وكلّ عائلة تنقسم إلى أقسام لانيّة classes والأقسام إلى مجموعات groupes لسانيّة والمجموعات إلى فروع branches لسانيّة. (Hjelmslev, 1966, 97).

التي تسيطر على اللسانيات في عصره كما رأينا سابقا .
يمكن أن نجمل أهم الملاحظات في التعريفات التي قدمها هيلمسلاف لكل
منهما وفي اعتباره الأنماطية أعلى تراتبيا من الوراثة .

بدأ هيلمسلاف بتعريف إجرائي *définition opérationnelle* والمقصود بهذا
التعريف أنه يقدم مقياسا، أداة عملية تقضي بوجود قرابة وراثية أو لا في حالة
معينة (م.ن.53). على هذا الأساس عرّف القرابة الوراثة بكونها وظيفة بين
عناصر التعبير في الألسن. وهذا يستلزم أن هذه الألسنة متولدة من نفس
اللسان الأصل. أما القرابة الأنماطية فعرفها بكونها وظيفة بين مقولات الألسن.
أول ما يلاحظ في شأن التعريف قيامه على مفهوم الوظيفة بدون وضع
تعريف لها. وقد توقف بيس (Bès, 1967) عند هذا الأمر وعلل انعدام تعريف
الوظيفة بكونها مصطلحا أوليا يوضع ولا يعرف وهو أمر طبيعي يرجع إلى
عموميته. في المقابل سجل وجود قيود أي قصر الوراثة على وظائف العناصر
والأنماطية على وظائف المقولات. والحال أن هذه القرابة الوراثة يمكن أن توجد
بين المقولات أيضا من نحو مقولة الحركات في اللسان الإسياني المرتبطة بوظيفة
مع مقولة الحركات في اللسان الإيطالي. بالإضافة إلى هذا يمكن للسانين لا
ينتميان إلى نفس اللسان الأصل أن يتقل أحدهما إلى الآخر أو أن يقترض
كلاهما من مصدر مشترك أو بالعكس. واستنادا إلى كل ما تقدم خلص بيس إلى
أن تعريف هيلمسلاف الإجرائي ليس وسيلة عملية يمكن أن نقطع به في هذه
الحالة القائمة على الاسترسال بينهما .

وقل مثل هذا في التعريف الإجرائي للأنماطية لأنه لم يخل هو أيضا من
إشكال. فقد تطرق هيلمسلاف إلى مفهوم اللسان بادئا بتقديم تعريف واسع له
ثم تعريف ضيق (Hjelmslev, 1966, 135-136). ووضع حسابا *calcul* على أساسه
يمكن أن تدرس كل الأنماط الممكنة للألسن. وفي ضوء هذه الأنماطية يتم تقسيم
الألسن الملاحظة وتوضع حقائق تجريبية ويتم الاقتراب من مشكل طبيعة اللغة.
وقد خلص بيس إلى أن هيلمسلاف طرح المشكل أكثر من أن يقدم الأجوبة بل
نقول إن هيلمسلاف نفسه صرح بأن ما قدمه ناقص وغير مكتمل.

أما التعريف الشكلي *définition formelle* لكليهما فقد جاء في «درجات

لسانيّة» Degrés linguistiques المضمّن آخر كتابه اللّغة وقد بناه على أساس العلاقة بين الألسنة الخاصّة واللّسان الأصل من جهة أو النمط من جهة أخرى: تشترك الوراثة والأنماطية في هذا الاستمرار. رأى بيس في استعمال مصطلح الاستمرار إشارة من هيلمسلاف في الآن نفسه إلى المطابقات بين العناصر والأنظمة بأكملها. يظهر الاستمرار في الوراثة في قيامها على تعالق ⁽¹⁾ corrélation اقتضاء أحادي الجانب، معنى ذلك أنّ الألسنة الخاصّة تقتضي اللّسان الأصل لا العكس، والمقصود بالتعالق هو أنّ الوظيفة الموجودة بين لسان خاصّ واللّسان الأصل هي علاقة تعالق: اللّسان لا يتعايشان enexistent ولكنهما يتتابعان se succèdent. أمّا الأنماطية فتقوم على علاقة relation اقتضاء أحادي الجانب، معنى ذلك أنّ الألسنة الخاصّة تقتضي النمط لا العكس. والوظيفة هي علاقة أي أنّ اللّسان الخاصّ والنمط يتعايشان. وإذا كان لدينا لسان خاصّ فإنّ لدينا تبعاً لذلك النمط.

أمّا في ما يخصّ ترتيبهما فيحينا هذا الموضوع على تصنيفيّة taxinomie لم يعتمد فيها هيلمسلاف لا على المقياس الزمانيّ (الأسبقية الزمانيّة) ولا المكانيّ (الانتشار في المكان) بل على ما نسمّيه كفاءة الأنماطية التفسيرية. ولذا كانت الأنماطية كما يقول أعلى تراتبيّاً hiérarchiquement من الوراثة. بيان ذلك أنّ للأنماطية كفاءتين: كفاءة وصفية تظهر من خلال إجابتها عن السّؤال: ما هي الأبنية اللّسانية الممكنة ولمّ هذه الأبنية ممكنة في حين أنّ أبنية أخرى غير ممكنة؟ وكفاءة تفسيرية أي أنّها تفسّر الوراثة لأنّها هي الوحيدة التي يمكن أن تسمح بفهم القوانين العامّة التي على أساسها تتغيّر الألسن وتسمح بفهم إمكانيّات التّغيير التي يحتوي عليها نمط معيّن (Hjelmslev, 1966, 129). وهذا يعني أنّه لا يوجد فصل صارم بين اللّسان أو بالأحرى حالة اللّسان وتطوّره أو مفهومي الآنية والزّمانية حسب سوسير مع العلم أنّه هو أيضا قد رأى أنّ هناك صلة بينهما.

(1) سمّي علاقة الوظيفة (ارتباط، صلة) الموجودة بين العلامات أو العناصر داخل نفس السلسلة. أمّا التعالق فهو الوظيفة الموجودة بين عناصر جدول ما (Hjelmslev, 1966, 56).

على هذا النحو يمكننا أن نفهم قوله المذكور سابقا عن الأنماطية بكونها «ترتفع إلى وجهات نظر عامة» أي تهتم بالعموميات والثوابت. وهو ما ستفصل القول فيه العنصر الموالي من خلال التطرق إلى ما سماء هيلمسلاف أنماطية البنية.

5. الأنماطية اللسانية هي أنماطية البنية

من المتفق عليه أن القرابة الأنماطية تقوم على النمط أي وصف الألسنة حسب بعض خصائص مختارة مسبقا وتصنيفها هي ضوء نقاط الالتقاء والتشارك بينها، خلافا للقرابة الوراثية القائمة على مفهوم الشجرة العائليّة. وقد وجدت محاولات سعى فيها البعض إلى المطابقة بين نمط لساني وبعض العائلات اللسانية كالمطابقة بين النمط العازل واللّسان الصيني-التّاي le chinois-thai أو المطابقة بين النمط الإلصاقي والألطيّ l'altaïque والأوراليّ l'ouralien... وتبيّن أنّ هذا الأمر غير ممكن لأنّ مبدأ التّغيير اللّساني الكامن في ظهور العائلات اللّسانية يستلزم أنّ لسانا ما يمكن أن يغيّر النمط، وفضلا عن هذا يمكن أن تجد ضمن العائلة اللّسانية الواحدة أنماطا مختلفة بالأساس وضمن النمط نفسه يمكن أن توجد ألسن تنتمي إلى عائلات هي بالأساس مختلفة (م.ن. 125-127).

لاحظ هيلمسلاف أنّ اللّسانيّات التّقليديّة اهتمّت أكثر بالقرابة الوراثيّة. إلّا أنّ الأنماطية ليست بالموضوع الجديد فقد ارتكزت على أنماطية الاستعمال من خلال اهتمامها بطبيعة العلامات والمقصود بذلك بنية الكلمات. والكلمة حسب هيلمسلاف هي كلّ علامة قابلة لأن تغيّر مكانها داخل سلسلة لسانية أي أن تكون قابلة للتّعويض (م.ن. 123).

اهتمّ لسانيّو القرن التاسع عشر ونعني على وجه الخصوص شليغل Schlegel (1772-1829) وهمبولدت Humboldt (1767-1835) بالأنماطية اللّسانية. فقسّموا الألسنة البشريّة اعتمادا على بنية الكلمة المختارة بحسب الاستعمال usage إلى أنماط أربعة: نمط عازل isolant والإصاقي agglutinant وإعرابيّ flexionnel ومتعدّد التّأليف polysynthétique. لم تسلم هذه المقاربة من اعتراضات. فقد

عدّ هيلمسلاف هذا التقسيم تقسيماً غير مُرضٍ *insatisfaisante* نظراً إلى أنّ هذه الأنماط لا تكاد تظهر في وضع خالص وإلى أنّ أكثر الألسنة تنتمي إلى أنماط مشتركة (م.ن.125). وأطلق عليها فوييه Feuillet المقاربة المورفولوجية. وقد تبيّن في النهاية أنّ هذه المقاربة جزئية أدت إلى طريق مسدود (Feuillet.2006).

أمّا في القرن العشرين فنذكر أنماطية سابير⁽¹⁾ التي اعتبرها هيلمسلاف أنماطية غاية في الإحكام ولكنها شديدة التعقيد (Hjelmslev.1966, 125). وهي حسب كلود حجاج على أهميتها لا غد لها (Hagège.1982, 863).

اقترح هيلمسلاف تصوراً آخر للأنماطية قائماً كما يقول على وجهات نظر أكثر عمقا وجوهريّة ممّا سبق. ذلك أنّ المقادير *grandeurs* التي ينبغي أن نقارنها بين الألسن المختلفة هي المقولات *catégories* ويقصد بالمقولات مجموعة المقادير التي يمكن أن تدرج ضمن أمكنة محدّدة في السلسلة. توجد هذه المقولات في البنية على مستوى التعبير (الحركات والحروف والنبرات...) وعلى مستوى المضمون (المقولات النحوية: الحالة الإعرابية، الجنس، العدد...). كما توجد في الاستعمال على مستوى التعبير (مقولات الأصوات) وعلى مستوى المضمون (مقولات الدلالات). وهذا لا يتمّ بصورة اعتبارية بل على أساس ملاحظة العلاقات التي فصلت القول فيها: علاقات اقتضاء / بدون اقتضاء، علاقات اقتضاء أحادية / متبادلة، كامنة... (latente...) (Hjelmslev.1966,123...).

وعليه فإنّ الألسن التي لها نفس المقولات ينبغي أن توضع ضمن نفس النمط اللساني. في المقابل لا يمكننا أبداً من وجهة نظر أنماطية أن نهتمّ بمقارنة العناصر: أن يكون للسانين عنصر مشترك فهذا يعني أنّ لهما مقولة مشتركة أي مقولة يمثلها هذا العنصر.

اعتبر هيلمسلاف أنّ اللسانيات الكلاسيكية اهتمت بالأصوات *sons* من زاوية فيزيولوجية وفيزيائية. والمنتظر هو إقامة أنماطية لسانية فونولوجية تكون إحدى الأنماطيات الممكنة المتعلّقة بالاستعمال على مستوى التعبير أي على

(1) انظر الفصل السادس من كتاب سابير (Sapir.2001).

أساس مقولات الأصوات (م.ن. 151). وفي الحقيقة فإن ما قدمته الدراسات السابقة للأصوات (حركات وحروفاً من حيث موضع نطقها وصفاتها...) كان محلّ اعتراض بسبب كونها ليست مقولات مضبوطة ضيقاً دقيقاً؛ هي أقرب إلى دراسة الأصوات معزولة بعضها عن بعض.

أما في ما يخصّ الدلالة فالمنتظر هو وضع أنماطية الاستعمال على مستوى المضمون (م.ن. 157). وهي في رأيه مهمة أعسر من الأنماطية الصوتية لأنّ الدلالة تمثّل المجال الأقلّ دراسة وبحثاً وهي في الآن نفسه الأكثر اتساعاً. يضاف إلى هذا أنّ مضمون اللغة هو العالم نفسه الذي يحيط بنا: دلالات خاصة للكلمة. هذه الدلالات التي أطلق عليها تسمية الأفراد *individus* هي أشياء العالم.

هكذا خلاص هيلمسلاف في نهاية الفصل المخصّص لأنماطية الاستعمال إلى أنّ حظّ هذه الأنماطية هو أكثر ضعفاً في الدراسة وستواجه نفس صعوبات الأنماطية الصوتية لأنّ الألسنة لا يطابق بعضها البعض من حيث العلاقة مع عالم الأشياء ومن حيث العلاقة مع عالم الأصوات. لكلّ ما تقدّم رفض هيلمسلاف أنماطية الاستعمال ورأى أنّ الصّورة الوحيدة للأنماطية اللسانية التي بدت له قابلة للتحقّق على أساس موضوعي هي الأنماطية البنيوية. وهذا ما رأته اللسانيات الكلاسيكية⁽¹⁾ بشكل مفارق استحالاته.

تقوم الأنماطية البنيوية عند هيلمسلاف على مفهوم بنية اللسان. وهي مفهوم مركزيّ لأنّه اعتبرها هي التي تحدّد هويته والثابت فيه ولكنها في الوقت نفسه أساس الاختلاف بين الألسن (م.ن. 61-62). ومما يدعم أهمية البنية هو كونها ثابتة *constante* بينما الاستعمال متغيّر *variable*. ذلك أنّه يمكن أن تطابق الاستعمالات الأشدّ اختلافاً البنية نفسها ولكنّ العكس ليس صحيحاً لأنّ نفس الاستعمال يطابق بنية واحدة. وقد استعار صورة لعبة الشطرنج لتوضيح الفرق بين البنية والاستعمال (م.ن. 64-67).

(1) انظر نقده للسانيات الكلاسيكية في دراستها للأصوات والدلالة (Hjelmslev, 1971, 101).

إن ترتيب الألسنة حسب أنماط لسانية يكون بحسب بنيتها وهذا الأمر متعلق عنده بالسّمات البنيوية التي نعتبرها حاسمة (م.ن. 123) وقد اشتغل على السنة وصفها باليومية quotidienne⁽¹⁾.

لأنماطية البنية كما ذكرنا سابقا مهمة الإجابة عن السؤال: ما هي الأبنية اللسانية الممكنة ولم هذه الأبنية ممكنة بينما الأخرى غير ممكنة؟ وهذا ما يجعلها أقرب إلى مشكل طبيعة اللغة. لفهم هذا الأمر نرى أنه ينبغي ربطه بتصوّره لنظرية عامة للبنية اللغوية وإن تأسس هذه النظرية ليس عملا تجريبيا empirique وإنما عمل حساب travail de calcul⁽²⁾. ذلك أنه تتعدّد الإحاطة بكلّ النصوص الموجودة بل هو أمر لا فائدة ترحى من ورائه لأنّ النظرية ينبغي أن تطبّق لا فحسب على النصوص المكتوبة أو المنطوقة إلى حدّ اليوم وإنما أيضا على النصوص التي ستكتب أو تنطق في المستقبل أي كلّ النصوص وكلّ الألسن الممكنة نظريا (م.ن. 140). وعليه تكون النظرية شاملة وقد أحاطت بالألسنة المتوّعة المعروفة وبالألسنة والأنظمة الممكنة أيضا. في هذا السياق نفهم حديثه عن الأبنية الممكنة وغير الممكنة. أما هدفها الأبعد الذي عليها أن تبلغه ولم تتمكّن كما يقول هيلمسلاف أمثلته من توضيحه فهو إعداد قوانين عامة متّصلة بالمقولات التي يمكن أن تكون لسان ما وبالمقولات التي يجب أن تكون له ومتّصلة بتعالقات الاقتضاء التي تربط المقولات عموما (م.ن. 149).

توقّف لازار عند هذا التصوّر الذي يرى أنّ موضوع الأنماطية هو اكتشاف السّمات المشتركة في الألسنة المتوّعة أي العلاقات غير المتغيرة، الثوابت الكونية لأبنية الألسن أي القوانين التي تسيّرهما، موضّحا أنّ الأنماطية بسعيها إلى الكشف عن هذه الكليات أي قوانين اللغة تشبه علوم الطبيعة التي تبحث عن القوانين الكلية للمادّة (Lazard 2007et 2008). ولم تتوقّف مهمة الأنماطية عند هذا الأمر بل إنها تفسّر التغيرات اللسانية بالوقوف على قوانين التغير العامة ومعرفة العلاقات القائمة بين المقولات. فهي

(1) كالفرنسية والإنجليزية والألمانية (Hjelmslev. 1966, 139).

(2) انظر حديثه عن أنماطية حسابية لنظرية اللغة (Hjelmslev. 1971, 159).

تسمح بفهم القوانين العامة التي على أساسها تتغير الألسن وإمكانيات التغيير التي يتضمنها نمط معين كما ذكرنا أعلاه. وتسمح بمعرفة المقولات التي يدعو بعضها بعضا ويدعم بعضها بعضا بالتبادل والمقولات التي تتجنب الأخرى وتبتعد عنها. إنها تقدم إجابة عن السؤال المتعلق بأسباب التغيير اللساني (Hjelmslev, 1966, 172).

على هذا النحو في تقديرنا يمكن أن نفهم صفة الشمولية التي وصف بها هيلمسلاف الأنماطية. فهي تظهر في كون الأنماطية تصف الممكن من الأبنية وتفسر لم الأبنية الأخرى غير ممكنة، وهي كونها تفسر التغييرات اللسانية. وتظهر في دراستها للأبنية وهي غير متغيرة للوقوف على الثوابت والقوانين العامة. وتظهر ثالثا في تصوّره البنيوي ورفضه للمنهج الاستقرائي inductif وتبنييه للمنهج الاستدلالي. فالغلوسيماتيك هي نوع من الجبر algèbre اللغوي قائمة على مجموعة من المسلمات axiomes اعتمادا عليها يمكن أن نحيط لا فحسب بتنوع الألسنة المعروفة بل أيضا بالألسنة والأنظمة الممكنة.

قد يلاحظ قارئ هيلمسلاف (سواء على مستوى بعض المصطلحات من حيث المفهوم أو الإجراء أو على مستوى النتائج) هنات ونقائص كان هيلمسلاف نفسه قد أشار إليها. فقد نبّه القارئ إلى أنه لن يجد إجابات شافية وكافية وعرضاً واضحاً للأنماطية البنيوية typologie structurelle. ذلك أن ما قدمه مؤقت وغير مكتمل هو مسودات فيها بعض ملامح ويكون برنامجاً غير متحقق. ويمكن أن يعلّل هذا بكون البنية والأنماطية مجالاً يكرأ وأن اللسانيات لم تحلّ بل لم تطرح المشاكل المركزية.

6. أية أنماطية اليوم؟

ما زالت الأنماطية إلى اليوم مثار بحث وتساؤل؛ فالتابع لهذا الموضوع يقف على آراء مختلفة تصل في بعض الأحيان إلى حدّ التباين سواء من حيث ما بنيت عليه من فرضيات أو من حيث أدواتها الوصفية أو ما وصلت إليه من نتائج. فمن المحقق أن المقاربة الأنماطية ليست مقاربة لوحدة صماء approche monolithique وأنها ليست محلّ اتفاق المساهمين فيها ولا الناقدين لها في ما يخصّ مؤسسها

أو أدواتها النظرية والمنهجية والوصفية واشتغالها على السنة الأجنبية غريبة
exotique (Imbert.2012,14) . بل إن نظرة يسيرة في ما كتبه لازار على سبيل
المثال تبين أنها عنده أقرب إلى المعرفة savoir منها إلى العلم science رغم أنها
جمعت عديد المعطيات وقدمت عديد الفرضيات والنتائج لأن ما قدمته في
تقديره لا يرقى إلى النتائج التي وصلت إليها علوم الطبيعة (Lazard.
2008,16-17).

ولنكتف في هذا السياق بالإشارة إلى المقولات وهي مسألة خليقة بالبحث
والتفكير ما تزال الأسئلة تطرح في شأنها إلى وقت قريب: ما المقصود بهذه
المقولات؟ هل هي مقولات مشتركة بين الألسن أم هي خاصة بلسان أم هي من
وضع اللساني؟

لقد تكرر طرح هذا الموضوع وتجدد والظاهر أن أمره لم يحسم بعد. فمن
الأنماطين من اعتمد على مفاهيم نحوية تقليدية سيرا على نهج غرينبارغ،
ومنهم من رفضه مثل لازار وكروفت Croft وقد انضم إلى هذا الموقف الثاني
هاسبلمات Haspelmath ودرابر Dryer حجّتهم في ذلك أن كل لسان يتميز
بمقولاته الخاصة به في حين أن هذه المفاهيم التقليدية قد وضعت بناء على
ملاحظة الألسنة الهندوأوروبية وهو أمر لا يستقيم. فخلصوا إلى أنه لا وجود
لمقولات بيلسانية catégories interlangues. وقد أرجع لازار تصوّره هذا إلى
تعريف اللسان عند سوسير (Lazard. 2008,18-20).

والظاهر أن هذا الموقف الثاني بدأ يلقي رواجاً لدى الأنماطين. لذا ينبغي
حسب لازار وضع أساس للمقارنة base de comparaison. وإذا كان الأمر مع
الفونولوجيا ممكناً لأن الميادين المهمة بها هي من باب علوم الطبيعة (الأكوستيك
والفيزيولوجيا) فإن الأمر مختلف مع الوحدات الدلالية لأنها خاصة بكل لسان
ولأنه ينبغي الاعتماد على مضامين المعنى contenus de sens أي المادة. لذا اقترح
ما سمّاه الأطر المتصوّرية الاعتبارية cadres conceptuels arbitraires يكون
اللساني حراً في اختيارها ويرجع في ذلك إلى حدسه وتجربته مع الألسن
المختلفة. هذه هي وسائل بحث وقتية وقابلة للتعويض ولكن بشرط أن تكون
مضبوطة ضبطاً دقيقاً.

وجملة الأمر أننا لسنا في حاجة إلى إثبات أن الأنماطية لم تحسم في كل مواضعها مثل مسألة المقولات ولم تقدم إجابة واحدة. فهيلمسلاف منذ سبعين سنة حلت تقريبا وصف ما قدمه بكونه وقتيا وغير مكتمل وذكر أن قارئه قد يأسف لوجود خانات فارغة في عمله. واليوم يتحدث المختصون عن أنماطيات لا أنماطية واحدة مما يدل على اتساع البحث وتعقده.

رغم كل ما سبق تظل الأنماطية مبحثا مهما في البحث العلمي لأنها عندما تنظر في الممكن من الأبنية وغير الممكن منها وعندما تقسّر الوراثة تقف حينئذ على القوانين العامة في الألسنة البشرية وعلى جوهر اللغة على وجه الخصوص.

خاتمة

سمح لنا النظر في موضوع الأنماطية وبناء اللسانيات عند هيلمسلاف بالوقوف على النقاط التالية:

أولا: إن مسألة بناء اللسانيات باعتبارها علما مستقلا موضوع شغل سويسر مؤسس اللسانيات الحديثة moderne واللسانيات النيوية على وجه الخصوص. فمن المتفق عليه عند أغلب الدارسين أنه واضع أسس هذا العلم النظرية والمنهجية انطلاقا من دروسه المنشورة سنة 1916 والتي مثلت قطيعة إيستمولوجية مع اللسانيات السابقة التاريخية والمقارنية على مستوى الموضوع والمنهج والمادة. وقد سعى إلى أن تكون اللسانيات مستقلة عن بقية العلوم التي كانت مرتبطة بها آنذاك (المنطق، الفلسفة، التاريخ...) فقدم منهجها الخاص ووضع متصوراتها النظرية.

والحق أن التفكير في أسس هذا العلم وبنائه لم ينقطع مع سويسر. وإنما استمر مع هيلمسلاف الذي استفاد مما قدمه اللساني السويسري وأضاف إليه وكان الذي سبق لا يمثل اللسانيات الحق أو أن ما توصل إليه سابقوه لم يبلغ المطلوب رغم ما قطع من أشواط. فأكد أنه بالأنماطية فحسب تبلغ اللسانيات مرتبة العلم. من هذه الناحية نستطيع أن نقول: إن اللسانيات هي عبارة عن ترسبات sédimentations وتراكم للمعارف وتقاطع للأفكار والملاحظات أخذت في التشكل على نحو بطيء (منذ سنة 1916 إلى سنة 1943). وليس من الإسراف

والمغالاة حينئذ أن نتحدث عن «طبقة أولى من اللسانيين» عنيت باللسانيات باعتبارها علما أو تسعى إلى بلوغ مرتبة العلم، مستعيرين هذا اللفظ من العرب القدامى عند حديثهم عن «طبقات اللغويين والتحويين» فهو يمثل في تقديرنا أنسب لفظ للتعبير عن تشكّل هذا العلم وبناء صرحه.

ثانيا: إن ما ورد في كتاب اللغة هو على حدّ تعبير هيلمسلاف «ليس معتقدا بل تفكير له أساس»⁽¹⁾. وقد بان لنا أنه وثيق الصلة بتصوّره النظريّ. ظهر ذلك من خلال نظره في علاقة الأنماطية باللسانيات (باعتبارها المهمة الكبرى لها للوصول إلى مرتبة العلم؛ ذلك أن الأنماطية ليست غاية تقصد إليها اللسانيات وإنما هي وسيلة لبلوغ مرتبة العلم وهي فضلا عن ذلك تكشف عن مسألة غاية في الأهمية هي مسألة طبيعة اللغة) وفي علاقتها بالقرابة الوراثية (هي أعلى تراتبيا منها لأنها تصف الأبنية الممكنة ولأنها تقدم إجابة لأسباب التغييرات اللسانية). وكان في معالجته لهذا الموضوع وفيّا للاتجاه البنيويّ ولنظريّته اللسانية وخلص إلى أن أنماطية البنية هي الأنماطية الجديرة بالدراسة.

صرّح هيلمسلاف بأن ما يطمح إليه على المستوى النظريّ في ما يخصّ الأنماطية ما يزال بعيدا على مستوى الواقع واصفا ما قدّمه بأنه عمل ناقص وغير مكتمل منبها قارئه إلى أنه قد يأسف لكون العرض لا يحتوي إلا على خطوط لملامح أولية ويمثّل برنامجا غير متحقّق. نحن إذن أمام مشروع لسانيّ سعى هيلمسلاف إلى تحقيقه فيه الطرح النظريّ أكثر من المستوى الإجرائيّ فيه، والأسئلة المنهجية أكثر من التّطبيق وطرح الأسئلة المناسبة أكثر من تقديم الأجوبة الشّافية الكافية. وليس ينبغي أن نرى في هذا الأمر استنقاصا أو عيبا فإلى اليوم مازالت الآراء مختلفة في شأن الأنماطية من حيث المفهوم والتّصورات النظريّة والمنهجية والإجرائية... وفي هذا دليل على تعقّد الظاهرة اللغوية من جهة وفي أنّ العلم لا يراوح مكانه بل متحرك متعدّد من جهة أخرى. وقد شرّع هيلمسلاف هذا الاختلاف والتّعدّد حين رأى أنه في المجال العلميّ يمكن أن

(1) "Ce qui sera avancé n'est pas une croyance mais une réflexion fondée." (Hjelmslev, 1966,

نتحدث عن نتائج نهائية ولكن قلما يمكن الحديث عن وجهات نظر نهائية.

ثالثا: إن تناول هيلمسلاف للأنماطية هو في الحقيقة تفكير reflexion في اللغة وليس في الأنماطية في ذاتها لأنها كما ذكرنا أعلاه ليست إلا الوسيلة لبلوغ اللسانيات مرتبة العلم. وفي تقديرنا، على قارئ هيلمسلاف أن يجمع بين كتاب مقدمة لنظرية اللغة وكتاب اللغة لكونهما على اختلاف في الصياغة كتابين متكاملين. ولا غرو فهما يمثلان مشروعاً كاملاً. ذلك أنه لم يؤلف كتاب اللغة لدراسة الأنماطية في ذاتها وإنما كان مشغولاً بمسألة طبيعة اللغة وتفهمها في جانبها النظامي والتطوري وفي مستوى الأبنية والاستعمال. فمن خلال أنماطية الألسن تُدرس اللغة أي من خلال وصف الأبنية الممكنة وتفسير لم الأبنية الأخرى غير ممكنة نستطيع الوصول إلى الأهم والمقصود بذلك القوانين العامة أي الوقوف على الثوابت في الألسنة والوقوف تبعاً لذلك على خصائص اللغة البشرية والاقتراب من مسألة طبيعة اللغة. هذا ما يفسر في رأينا اختياره اللغة عنواناً لهذا الكتاب.

وأما كتابه مقدمة لنظرية اللغة فقد ختمه بفكرة مفادها أن النظرية اللسانية ليست فقط للكشف عن النظام اللساني في هيكله واستعماله وفي مجموعه وتفصيله بل للكشف أيضاً عن الإنسان والمجتمع الإنساني الحاضرين في اللغة والتي عبرها يمكن الوصول إلى مجال المعرفة الإنسانية بأكملها. ألم يلخص هدف نظرية اللغة الذي وضعته لنفسها في آخر كتابه بـ *Humanitas et*

Scuniversity

القائمة البليوغرافية

العربية

- بن حمودة، رفيق (2004): الوصفية مفهومها ونظامها في النظريات اللسانية. كلية الآداب بسوسة ودار محمد علي الحامي.
- سوسير، فردينان دي (1985): دروس في الألسنية العامة. تر. صالح القرمادي، محمد الشاوش ومحمد عجينة. تونس، الدار العربية للكتاب.
- المجدوب، عز الدين (1998): المنوال النحوي العربي، قراءة لسانية جديدة. كلية الآداب بسوسة ودار محمد علي الحامي.
- هاجيج، كلود (2016): بنية الألسن. تر. أحمد حاجي صفر. مراجعة ألين زلوعا. بيروت، المنظمة العربية للترجمة.

الأجنبية

- BÉS, Gabriel G. (1967): Parenté génétique et parenté typologique. In. La Linguistique. Paris, Presses universitaires de France, 1967, 2, pp.139-150. hal-01059289
- FEUILLET, Jack (2006): Introduction à la typologie linguistique. Paris, Honoré Champion, vol.19, coll. Bibliothèque de grammaire et de linguistique.
- HAGEGE, Claude (1982): Linguistique générale. In: École pratique des hautes études.4e section. Sciences historiques et philologiques. Annuaire 1978-1979. 1982. pp.860-867; https://www.persee.fr/doc/ephe_0000-0001_1978_num_1_1_6584
- HJELMSLEV, Louis (1966): Le langage: Une introduction; augmentée de Degrés linguistiques. Trad. du danois par Michel Olsen. Préf. de Algirdas Julien Greimas, Paris, Les Éditions de Minuit.
- HJELMSLEV, Louis (1971): Prolégomènes à une théorie du langage. Trad.

du danois par Una Canger avec la collaboration d'Annick Wewer. Suivi de
La structure fondamentale du langage. Trad. de l'anglais par Anne Marie
Leonard. Paris, Les Éditions de Minuit.

- IMBERT, Caroline et VALLEE, Nathalie (2012): Pour une description
typologique des langues. In. Lidil [En ligne], 46 | 2012, mis en ligne le 15
juin 2014. URL : <http://journals.openedition.org/lidil/3237>
- LAZARD, Gilbert (2007): Le langage peut-il être objet de science? . In:
Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et
Belles-Lettres, 151^e année, N.1, 2007, pp.347-363.
- LAZARD, Gilbert (2008): Vers une typologie scientifique. In:
Linguistique, 2008/2 Vol.44, pp.13-24.
- SAPIR, Edward (2001): Le langage. Introduction à l'étude de la parole.
Trad. de l'anglais par S. M. Guillemain. Paris, Petite Bibliothèque Payot.
- SAUSSURE, Ferdinand de (2005): Cours de linguistique générale. Edition
critique préparée par Tullio de Mauro. Paris, Payot.
- TAMBA-MECZ, Irène (1991): La sémantique. Paris, PUF, 2^e édition.